

أنماط الزواج في العصر الجاهلي

آ . سمية حطري¹

الشعر الجاهلي تراث خصب وثري راسخ يقصده الشائخة القوية اللفاظ والمعاني التي استمدتها الشاعر من طبيعة بيئته البدوية الصحراوية القاسية . فكان اهتمامه واضحا بكل من يعايشهم يوميا (المرأة - الناقة - الجواد - سادة القبيلة - الأسماء....). بالإضافة إلى احتياجاته اليومية (الماء - القوت - الشجرة - النخلة - الفرس - الصيد....). ويعد الزواج وبناء الأسرة من تلك الاحتياجات الأساسية و الضرورية في حياته . حيث ظهر في عصره على نمطين اثنين :

أحدهما داخلي (داخل القبيلة) والذي عرفه بن خلدون بالنسب الصريح حيث قال: "... ولا تزال (أنسابهم) بينهم محفوظة صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكثانة و ثقيف وبني أسد و هذيل ومن جاورهم من خزاعة لما كانوا أهل شظف ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع ويعدوا من أرياف الشام والعراق ومعدن الأدم والحبوب كيق كانت أنسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عرف قبيهم شوب".⁽¹⁾

وثانيهما خارجي والذي عرفه بن خلدون بالنسب المختلط حيث قال: "وأما العرب الذين كانوا بالتلول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حمير و كهلان مثل لعم وجذام وغسان وطىء . و قضاة وآباد فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم..." ومن خلال الدراسات الأدبية و الاجتماعية و الأنتروبولوجية⁽²⁾ كذلك من خلال بعض الأنتعار و الأساطير الجاهلية القديمة (كقصة در يد بن الصمة مع الخنساء ،و عنترة مع علة وزهير بن أبي سلمى مع أم أوقها أو أساطير زواج الإثس مع الجن) نجد أن الزواج عند العرب في العصر الجاهلي سواء فيما بينهم أو بتصاهر مع غيرهم من القبائل أو حتى مع الأعاجم من (الفرس و يهود وروم....) -كان على نمطين اثنين :

1 - الزواج الاغتراقي :

والزواج الاغتراقي هو أكثر شيوعا من غيره عند غالبية المجتمعات ذات التركيب العشائري -CLOU- ومنها المجتمع العربي فالأفراد لا يتزوجون داخل المجموعة وإنما يبحثون عن زوجات خارج المجموعة .

وهذا يساعدهم على تقوية الروابط بين القبائل المختلفة، وتجنب النزاعات والحروب لأن المصاهرة تجعل بينهم أبناء و حفدة . فكل هذا يقربهم اجتماعيا وفكريا ودينا وسياسيا⁽³⁾. ومن بين أنواعه التي ظهرت في العصر الجاهلي في (شبه الجزيرة العربية) نجد:

¹ - أستاذة مساعدة -قسم اللغة العربية و آدابها -كلية الآداب و العلوم الإنسانية- جامعة سيدي بلعباس -الجزائر.

مجلة الآداب و العلوم الإنسانية. العدد: 02

أنماط الزواج في العصر الجاهلي أ ،سمية حظري

أ- زواج الدواق : وهو تعدد زيجات النساء ومتن :

أم خارجة : فقد ضرب بها المثل في كثرة زواجها ،حيث خلف عليها عدد كبير من سادة قبائل العرب ويطونها متباعدة في أساليبها.ويقال:أسرع من نكاح أم خارجة. التي كانت ذوقة تزوج و تطلق من شادت .
ومارية العبدية : وهي بنت الجعيد فتعد (أزواجها) وكانت علامة الثماتها للزوج :أن تعالج له طعاما إن أصبح.(4)

2- زواج المتعة :

كان زواج المتعة شائعا بين العرب، وهو زواج لأجل معلوم ولمدة معينة، وقيل إنه سمي متعة لاستمتاع الرجل بالمرأة أو لتمتيعه لها بما يعطيها، وعندما يجيء وقت الرجول وعودته إلى أهله تتم الفرقة بينه وبينها .
يرى "ولهاوزن" أن العرب اقتبسوا هذه العادة من الأمم الأخرى، وأن من بين أسباب وجوده، تنقل الرجال بين عديد من المناطق، و لاسيما العمل في التجارة.(5)

أما في صحيح الترمذي : فجاء فيه أن النكاح المؤقت وقع في ظروف معينة، وهي الحروب التي كانت بين المسلمين والكفار في بداية الإسلام، فكثرة ابتعاد الرجال عن بيوتهم ونسائهم، كان يستدعي ذلك حتى لا يقعوا في المعاصي.(6) ويدل على ذلك ما رواه مسلم عن سيرة . قال: " أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتعة عام الفتح، حين دخلنا مكة، ثم لم نخرج حتى نهانا عنها." فهذا صريح في أنه حكم مؤقت اقتضته ضرورة القتال. وروى ابن ماجه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(يا أيها الناس إني كنت أئنت فسي الاستمتاع، ألا وإن الله حرمها إلى يوم القيامة).(7)

ب- الإضواء والتزاوج الداخلي Endogamie :

يتم الزواج الداخلي الذي يسمى بالإضواء داخل المجموعة. وقد نشأ في ظل ظروف كانت تدعو إلى تماسك أفراد المجموعة تماسكا شديدا. وظلت العشائر والبطون العربية تحافظ على كينونتها لأن رحلاتها كانت متعددة من أجل البحث عن مصادر الماء والمرعى، كذلك وبسبب الحروب والفراعات.
وبالتالي كانوا يفضلون الزواج فيها بينهم حتى يتجنبوا التعقيدات القيادية لمجتمع متحرك، حتى يسهل التحرك، وحرص على بقاء أفرادها تحت نفوذها.(8)
-ومن أنواع الزواج الداخلي :

1- زواج الأقارب (الزواج العادي):

وهو الزواج بين أبناء العمومة أو الختونة، أي من جانب الأم أو الأب، من نفس القبيلة. ولله نوافع معينة منها:

-تجنب النزاعات الناتجة عن الحماة أو الحمى لأتبعها خال وخالة، أو عم و عمه، والعلاقة بين العائلتين وطيعة ذات قرابة دموية.
-تأكيد بقاء الإرث داخل المجموعة.(القبيلة)
-تأكيد بقاء السلطة داخل المجموعة.(9)

أنماط الزواج في العصر الجاهلي أ. سمية حطري

2- زواج الاستبضاع :

كان الرجل يقول لامراته، إذا ظهرت من طمتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعني منه. ويعتزل لها حتى يتبين حملها من الرجل الثاني، وبعد ذلك يصيبها زوجها إن أحب رغبة في الإجاب (10)

3- زواج البذل :

وفيه يتم تبادل الزوجات فيقول الرجل للآخر :

"إنزل لي عن امرأتك، أنزل لك عن امرأتي." وقد يكون التبادل لمدة معينة وبدون مهر. (11)

4- زواج الرهط :

وقد يتم هذا النوع من الزواج داخل أو خارج القبيلة. وهو أن يتقاسم رهط من الرجال-قد يصل عددهم العشرة - معاشرة امرأة برضى منها وباتفاق مسبق بينهم وبينها، فإذا حملت ووضعت أرسلت إليهم، فيجتمعون كلهم دون استثناء. وتنسب ابنها إلى من تحب فيلحق بوالده المزعوم إن كان ذكرا، أما إن كانت أنثى فتسفيقها عندها.

-ذكر الهمخري في كتابه الأبرار: كانت النابعة أم عمرو بن العاصي أمة وسبيت فلئشراها عبد الله بن جد كان التميمي بمكة، فكانت لغيا ثم اعتقها فوقع بها: أبو لهب بن عبد المطلب وأمية بن خلف وهشام المغيرة المخزومي وأبو سفيان بن حرب والعاصي بن وائل السهمي، في ظهر واحد فولدت عمروا، فادعاهم كلهم لكنها قالت هو من العاصي لأنه كان يتفق عليها بسخاء.

قالوا: كان أشبه بسفيان. وفي ذلك يقول أبو سفيان في عمرو:

أبوك أبو سفيان لبد قد بدت لنا فيك منه بينات الشمال
فخاخيريه أما فاخرت ولا تكن تفاخر بالقاص الهجين بن وائل. (12)

5- زواج الضير أو المقت :

يتم هذا النكاح بعد تطليق أو موت الأب، فيخلفه ابنه و يتزوج بامراته

(أي زوجة أبيه) وإذا ولد لهم طفل فيسمى بالمفتى.

من عادة أهل يثرب أن يلقي ابن المتوفى نوبة على زوجة أبيه حتى يثبت ملكيته ووراثته لها. وله الخيار بين الزواج منها أو إيقاعها تحت رحمته حتى تموت فيرث ميراثها.

كما أنه لا يدفع لها مهرا عند الزواج، بل ينكحها بمهر مورثه. وتذكر الروايات بأن الرجل لم يتزوج بزوجة أبيه فحصب، وإنما بزوجة أخيه أو ابنه. (13)

فهذا الانقسام بين زواج داخل (القبيلة-المجموعة) وبين زواج خارج (القبيلة-المجموعة) كانت له أبعاده الاجتماعية و السياسية والاقتصادية والدينية... فالقبيلة هي وحدة تجمع كل هاته الأبعاد ولهذا كان تفصيل الزواج فيها بين أبناء وبنات نفس القبيلة من أجل استبقاء جميع ثرواتهم داخل مجموعتهم (العمال-البنون-الفرسان....) ونظرا للترحال البدوي المستمر فلا يمكن لأب تزويج ابنته ثم الرجل بعيدا عنها، أو رحيلها عنهم دون ملاقاتها من جديد أو لفترة طويلة المدى. (14)

أنماط الزواج في العصر الجاهلي أ. سميرة حظري

-وقد تنشأ الحروب بين قبيلة أهلها وقبيلة زوجها هذا ما يجعل المصاهرة تنقلب إلى عداوة تامة، وهذا ما حدث بالفعل مع جليئة وقتل أخيها جشاسم لزوجها كليب. حيث تقول:

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا تعجلي باللوم حتى تسألني
فإذا كنت تبين للذي بوجب اللوم قلومي وأعذلي
إن تكن أخت امرئ لميت على شغلني منها عليه فافعلي
جل عندي فعل جشاسم فسيا حسرتي عما أنعني أو ينجلي. (15)

-وإن كانت بعض القبائل أو العائلات المستقرة في بيوتها تزوج بناتها مع أشخاص يقطنون بعيدا سواء عرب أو أعجم، فهذا بغية توطيد العلاقات الاجتماعية و السياسية و الاقتصادية وتوسيع المعرفة وتبادل الثقافة، أو حرصا منها على تفادي الحروب والمآسي مع غيرها من القبائل الأخرى فالتحالف مع الغير خير من العداة ، بل قد يزيد من القوة و الأمان.

وإذا بقينا مع تلك الفترة الزمنية البعيدة (العصر الجاهلي) ومع ما جاءنا به شعراء ذلك العصر فستجد أن الزواج وبناء الأسرة و الاستقرار كان يتم داخل القبيلة وبين أفرادها، أم الهوى والحث والكاء على الحبيبة وعلاقات الحذف فكانت بين الأبعاد فالحبيب الشاعر أو الفارس المتجول من قبيلة والحبيبة التي يتم بها من قبيلة أخرى .

-كثير بن الصمة و الخنساء

وكان يشترط فيه المساواة في السيادة والعفة والشهامة وهنا يمكن الحديث مطولا وفي موضوع آخر عن عشرة بن شداد وعيلة .

الإحالات:

(1) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون الثبات العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبريد .مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية، بيروت-لبنان ص93.

(2) المرجع نفسه، ص93

(3) محمد رياض، الإنسان (دراسة في النوع والحضارة)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت الطبعة الثالثة 1974 م ص9

(4) إحسان النص، العصبية القبلية وآثارها في الشعر الأموي، دار القصة العربية للتأليف والترجمة والنشر ص14

(5) عبد الهادي عباس، المرأة والأسرة في حضارة الشعوب ص383

(6) عبد الهادي عباس، المرجع نفسه، ص380

(7) الإمام الحافظ ابن العربي المالكي الترمذي ،دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان - ج3-4 ص90

(8) الإمام الحافظ ابن العربي المالكي الترمذي المرجع نفسه ص90

(9) محمد رياض، الإيمان (دراسة في النوع والحضارة) ص488-489

(10) عبد الهادي عباس، المرأة والأسرة في حضارة الشعوب ص380

(11) عبد الهادي عباس، المرجع نفسه ص381

(12) المرجع نفسه ص382

(13) عبد الهادي عباس، المرجع نفسه ص387

(14) عبد الهادي عباس، المرجع نفسه ص387

(15) لويس شيخوا شعراء التصانية قبل الإسلام دار المشرق ، 1987 القسم 1 ص252

مجلة الآداب و العلوم الإنسانية. العدد:02